

تأملات دبلوماسية

نصف قرن من الرؤى من دبلوماسي ذي نزعة عُروبية من أوروبا الشرقية

أبريل 2024

السفير جورجي بوستين

سفير المجر السابق لدى إندونيسيا وإيران، ونائب الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة في العراق، ودبلوماسي مقيم في أكاديمية أنور قرقاش الدبلوماسية



هناك لعنة صينية يتم الاستشهاد بها كثيرًا وهي تتمنى للملعون أن "يعيش في أوقات متغيرة". لقد كنت على يقين من أنني سأواجه هذه اللعنة ولكن لا يوجد ما يدعوني للتذمر. ففترة الستينيات حتى الوقت الحاضر هي أبعد ما تكون عن الطابع الرتيب والثابت، ويبدو أن التغيير يزداد زخمًا، للأفضل أو للأسوأ. وإذا ترك هذا الأمر يخرج عن نطاق السيطرة، فقد يؤدي إلى الهلاك، وسيتعين على الدبلوماسيين الشباب اليوم أن يضطلعوا بدورهم في تهدئته.

بدأت رحلتي الدبلوماسية حتى قبل أن أصبح دبلوماسيًا. فما أفادني كثيرًا هو أن والدي كان دبلوماسيًا وكان متخصصًا في الدبلوماسية الاقتصادية. وكان أول إيفاد له في إندونيسيا، وهي في النصف الآخر من العالم بعيدًا عن بلادي. ومن هناك بدأ اهتمامي بآسيا والعالم الإسلامي.

كانت إندونيسيا قد خرجت لتوها من الحقبة الاستعمارية، وكانت هذه الدولة الضخمة تواجه تحديات هائلة لتخليص نفسها من التخلف - وإيجاد مكان لها في عالم الحرب الباردة. ودفعت الصراع بين الشرق والغرب البلاد إلى حرب أهلية مروعة كنت شاهداً عليها أثناء طفولتي. وبعد أن شاهدت التاريخ يُصنع أمام ناظري، أسرتني السياسة ورأيت مستقبلها في الدبلوماسية.

ساعدتني دراستي الأكاديمية أيضًا. فقد كنت واحدًا من برنامج تبادل طلابي إلى سوريا، والتحقت بجامعة دمشق، وحصلت على شهادة في التاريخ. وكانت السنوات التي تشكّل فيها وعيي هناك مزيّجًا من التعلّم الرائع والسفر، طغت عليه حلقات من العنف في كل مكان، حيث قوبلت معارضة حكم الرئيس حافظ الأسد، الذي كان يحكم بقبضة حديدية، بالقمع. ورحلت على أمل أن أبقى على اتصال بالمنطقة المضطربة التي تعلمت أن أنظر إليها بعين النقد ولكن بتعاطف.

بعد أن أنهيت دراستي كدارس للعلوم العربية في بلدي المجر، التحقت بالسلك الدبلوماسي. ولما كنت واحدًا من القلائل الذين يتحدثون اللغة العربية في وزارة الخارجية، فقد أوفدت إلى مصر. وبعد انهيار عزلة مصر الناتجة عن كامب ديفيد، أعادت القاهرة الروابط مع العواصم العربية، وبرزت ثانية كمرکز دبلوماسي رئيس. وقد كانت المكان المناسب لدبلوماسي شاب وكنت محظوظًا. حيث كانت مصر بمثابة الدبلوماسية التأسيسية 101 بالنسبة لي، واكتسبت فيها خبرات أفادتني مدى الحياة، وإن كان ذلك بطريقة "المدرسة القديمة" الساحرة، "أثناء تناول الشاي في نادي الجزيرة". وكانت الدبلوماسية تسير ببطء، مثل النيل، حيث كانت التقارير تكتب على الآلة الكاتبة، ويتم تشفيرها وإرسالها عبر أجهزة الإرسال.

كان الإيفاد الثاني لي في ليبيا، التي كانت تسمى آنذاك "الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى" (وكما قال الرئيس المصري السابق أنور السادات ساخراً: "عليك أن تلتقط أنفاسك أثناء نطق هذا الاسم"). الدبلوماسية في ليبيا كانت أقرب إلى "دراسة علوم الاستبداد"، حيث تحاول فهم معمق القذافي والتنبؤ بخطوته التالية. وعندما كنت أتولى رئاسة لجنة العقوبات في قضية لوكربي في إطار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، كانت بلادي في موقف حرج، وأنا أيضاً كنت في موقف أشد حرجاً. كان البقاء (من الناحية المهنية) مشروطاً بالعلاقات في ديوان الرجل الليبي القوي، وكان المبعوثون الأجانب يتنافسون للحصول على أخبار حول مؤامرات القصر في هذا المكان السريالي للدبلوماسية.

استؤنفت علاقة حبي مع آسيا عندما تم تعييني سفيراً لدى إندونيسيا. وكان مما يسرُّ النفس مشاهدة البلاد وهي تخرج من فوضى عصر ما بعد سوهارتو، وتشرع في مسيرتها المبهرة لكي تصبح دولة ذات ثقل اقتصادي في جنوب شرق آسيا. ولكن ما شوّه هذه الصورة هو موجة الإرهاب (تفجيرات بالي) والتسونامي المدمر في ديسمبر 2004. وأدى تكرار الكوارث الطبيعية إلى ارتباط الدبلوماسية في إندونيسيا بأعمال الإغاثة الإنسانية.

منع الصراعات

بفضل الدروس المستفادة في مكافحة الإرهاب والتعافي بعد الكوارث، كانت محطتي التالية هي أفغانستان، وهو تناقض صارخ مع أماكن إيفادي السابقة. ففي حدود ولاية بغلان المنعزلة، عملت كمستشار سياسي وتنموي لفرقة إعادة إعمار المقاطعات التابعة لقوة المساعدة الأمنية الدولية من بلادي. كان العمل الميداني في المناطق الريفية في أفغانستان عبارة عن دبلوماسية من نوع معقد. فقد علمني منع الصراعات وحلها في بيئة مليئة بالإرهاب والتوترات الطائفية والعرقية الكثير عن نوع من العمل الدبلوماسي أسميه "دبلوماسية ساحات المعارك".

بعد تجربتي في أفغانستان، كانت وجهتي التالية هي إيران. عندما وصلت إلى إيران، كان الصراع بين دعاة الإصلاح والمدافعين عن الطابع المحافظ المتحجر للنظام قد وصل إلى ذروته في احتجاجات عام 2009 التي أجهضت. وفي هذه الأثناء، كان العالم يضغط على إيران للكشف عن برنامجها النووي السري. وتزامنت فترة عملي في إيران مع الجهود المبكرة لوضع الأساس لخطة العمل الشاملة المشتركة. وفي أثناء رئاسة بلادي الدورية للمجلس الأوروبي، كنت ممثل الاتحاد الأوروبي في طهران. كانت الخدمة في إيران "التي تكتنفها السرية" بمثابة دبلوماسية نذرتنا بالعصور الوسطى.

بعد انتهاء عملي في إيران، انضمت إلى بعثة الأمم المتحدة لمساعدة العراق، التي تم تشكيلها لتقديم المشورة والمساعدة لحكومة بغداد. وبصفتي نائب الممثل الخاص للأمين العام للأمم المتحدة، كانت مهمتي هي الإشراف على القضايا المتعلقة بالشؤون السياسية والانتخابات في البعثة. وكان العراق درسا في منع الصراعات وحلها يوماً بعد يوم، حيث كانت البلاد تتعافى من الاحتلال والحرب الأهلية، وتتجه نحو مرحلة جديدة من الصراع. لقد كان تنظيم داعش مأساة كان ينبغي أن يتجنبها العراق، لو أن القوى العظمى وطففت قدرًا أكبر من الحضور الذهني ولو أن الأمم المتحدة أعطيت المزيد من القوة. فالانقسامات في مجلس الأمن جعلت دبلوماسية الأمم المتحدة في العراق كمن يحاول الرقص مُقيداً.

بعد ذلك، أخذتني طريقي الطويلة والمتعرجة التي شملت جنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى والشرق الأوسط إلى سنغافورة للعمل في معهد الشرق الأوسط التابع لجامعة سنغافورة الوطنية. وتكونت لدي رؤية قيّمة من مهمتي التي استفرقت عامين في البحث عن العلاقة بين شبه الجزيرة العربية وجنوب شرق آسيا في عالم الأفكار. وها أنا أطلع الآن إلى الاستفادة من خبرتي المتنوعة والمتراكمة في تدريب الدبلوماسيين في أكاديمية أنور قرقاش الدبلوماسية.

القواعد الأساسية

عرفتُ في رحلتي وجوهًا عديدةً للدبلوماسية، وكان لي شرف مقابلة العديد من زعماء العالم وصانعي السياسة الدولية. ومن بين هذه الشخصيات الكاريزمية التي لا تُنسى نيلسون مانديلا، وهاشمي رفسنجاني ذو الشخصية الغامضة، وحافظ الأسد ذو الشخصية المخيفة، وبطرس غالي ذو الشخصية الجذابة، وياسر عرفات الذي يصعب سبر أغواره، ومعمار القذافي ذو الشخصية العجيبة، وراموس هورتا ذو الشخصية المرحة، على سبيل المثال لا الحصر. وأضافت هذه اللقاءات خبرات قيّمةً إلى معرفتي الدبلوماسية. وبناءً على ذلك، إليكم بعض النصائح الأساسية لجعل الغد من الدبلوماسيين:

- لا تفزع أبدًا من أي شخصية مُهيمنة تقابلها أثناء أداء واجبك. مهمتك هي إيصال الرسائل، وإيجاد قواسم مشتركة، والسعي إلى التفاهم، وهي مهمة تتحقق على أفضل نحو من خلال الثقة بالنفس والصرامة والصدق.
- تأكد من وضوح الرسائل. عندما تقوم بتوصيل رسالة واضحة ومتماسكة، يمكن توصيلها بسلاسة. تأكد من ذلك خاصة عند مناقشة قضايا خلافية مع الوسطاء.
- لا ينبغي أبدًا أن يكون التمسك بموقفك في أي جدال ذريعة "للمزايدة" أو إلقاء المحاضرات أو التشهير بالشركاء في الحوار. مثل هذا السلوك يمكن أن يأتي بنتائج عكسية.
- الصدق في منتهى الأهمية لأن الخداع والكلام المزدوج، الذي كثيرا ما يرتبط بالدبلوماسية، يؤدي إلى نقيض المقصود. لا تعتقد إطلاقًا بإمكانية التذكي على شركاء الحوار.
- تُبنى الثقة من خلال كسب القلوب والعقول. وهذا يساعد في التغلب على العقبات في الحوار. يمكن مواجهة التصرفات السلبية لشركاء الحوار بالتعاطف واللطف الخالصين، وهو ما يتم عادةً ردهً بالمثل. ومن هذه النقطة تصبح معالجة القضايا الشائكة أسهل.
- اسع دائمًا للفهم الجيد لعقلية الشركاء الذين تتعامل معهم. حاول "أن تكون في مكانه/مكانها". ابحث عن قواسم مشتركة وفي ذات الوقت حاول تجاوز العراقيل.
- تحلى دائمًا بالاحترام. تجنب الإساءة إلى شركاء الحوار من خلال عدم مراعاة الحساسية الثقافية. إن إظهار الاحترام لثقافة الطرف الآخر أمر بالغ الأهمية.

لا يوجد كتيب استخدام واحد صالح لكل العالم في الدبلوماسية. ومع هذا، فإن قاعدة "لا تتمنى لغيرك ما لا تتمناه لنفسك من الغير" هو مبدأ رئيس ينبغي العمل به حتى عندما تستعر المعارك الدبلوماسية. ويجب تجنب الإكراه والفضاظة واللغة القاسية والترهيب بأي ثمن. يجب أن تظل الدبلوماسية قاصرةً على الأعراف والقيم المقبولة للجميع. هذا يساعد في استمرار الحوار، على الرغم من الاختلافات. "دبلوماسية الذئاب" و"دبلوماسية الزوارق الحربية" لا تؤدي إلى أي شيء.

التغيير والاستمرار

في فترة خدمتي التي امتدت لنصف قرن، شهد العالم تحولات كبرى. فقد تحولت الحرب الباردة إلى منافسة بين القوى العظمى، وتحولت الثنائية القطبية إلى تعددية قطبية. وباتت حقوق الإنسان، وحقوق المرأة، والأقليات العرقية والدينية والجنسية، والبيئة بشكل عام، قضايا محورية في الدبلوماسية. وأعطى التحدي المتمثل في تغير المناخ والانتشار النووي الدبلوماسية المتعددة الأطراف فرصةً جديدةً للحياة. وأدت المخاوف المحلية والمحددة إلى نشوء تعددية الأطراف المصغرة.

شهدت الدبلوماسية تحولات بعد ظهور الرقمنة وتكنولوجيا المعلومات. وعلى غير المتوقع، أدت وسائل التواصل الاجتماعي إلى ظهور "دبلوماسية موازية" بمشاركة جماهيرية. ومع ذلك، تظل أساسيات الدبلوماسية "التقليدية" دون تغيير. فهي في جوهرها لا تتغير بمرور الوقت، وإن كانت تبدو رجعية، ولها تقاليد مثل لماذا نسعى رسالة مكتوبة إلى وزارة الخارجية "مذكرة شفوية" وماذا عن المسعى الدبلوماسي؟

لن يشعر متريخ وتاليران بالغرابة إطلاقًا في عالم الدبلوماسية المعاصر. إن الدبلوماسية، التي أصبحت أكثر تعقيدًا من أي وقت مضى، واندمجت فيها تقنيات القرن الحادي والعشرين، لا تزال تعتمد على التواصل بين البشر، ولم نشهد، للأسف، أي تغيير جوهري على مدى آلاف السنين - سواء كنا نكتب تقاريرنا على الطين أو الألواح الإلكترونية. إن الذكاء الاصطناعي، على الرغم من كونه معلقًا بارزًا، قد تسترشد به الدبلوماسية ولكنه لن يقوم بها أبدًا.

أكاديمية
أنور قرقاش
الدبلوماسية

ANWAR GARGASH
DIPLOMATIC
ACADEMY

www.agda.ac.ae

  @agdauae

 Anwar Gargash Diplomatic Academy